

بطرس أبو منة

هل وُحِدَ النظام العثماني بلاد الشام؟

أجرى المقابلة: سليم تماري؛
سميح حمّودة؛ منير فخر الدين

يُعتبر بطرس أبو منة من أبرز المؤرخين العرب المعاصرين ومن طليعة مؤرخي الفترة العثمانية المتأخرة في فلسطين. ولد في مدينة الرملة ووصل إلى مرحلة الدراسة الثانوية عندما حلّت النكبة بفلسطين، وتابع دراساته العليا في الجامعة العبرية في القدس وفي جامعة أكسفورد في بريطانيا.

وعلى الرغم من غزارة إنتاج أبو منة الأكاديمي الذي تجاوز الثلاثين دراسة تاريخية نُشرت باللغات العربية والإنجليزية والتركية والألمانية والعبرية، فإنه لم يظهر له إلاّ كتاب واحد باللغة الإنجليزية يجمع نخبة من إنجازاته، وهو كتاب *Studies on Islam and the Ottoman Empire in the 19th Century 1826–1876* (Istanbul: The Isis Press, 2001).

ولعل هذا ما حدا بمؤسسة الدراسات الفلسطينية على أن تنشر كتاب "مقالات تاريخية تكريماً لبطرس أبو منة" إعداداً وتحريراً عبد الله قبّطي وجوني منصور ومصطفى العباسي (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠١١). تناولت دراسات أبو منة جوانب متعددة من تاريخ الدولة العثمانية وبلاد الشام، ويمكن حصر مساهمته الرائدة في المجالات التالية:

١ - الجذور الإسلامية للتنظيمات العثمانية: وفيها يتحدى أبو منة الافتراض الشائع بشأن دور التأثيرات الأوروبية (الفرنسية بشكل أساسي) في الإصلاحات الإدارية في بدايات عهد التنظيمات، وخلال حكم السلطان عبد المجيد تحديداً، ويُظهر بدلاً من ذلك أهمية التجديد الإسلامي داخل الدولة العثمانية وكونه قد شكّل قاعدة للإصلاحات الجديدة.

٢ - أهمية الطرق الصوفية في بلورة نظام الحكم الجديد: أثار أبو منة دور الطرق النقشبندية في الإصلاح العثماني، وتناول الصراع بين أتباع الطريقة النقشبندية

وأتباع الطريقة البختاشية التي ازدهرت تحت ولاية فؤاد باشا وصدارة عالي باشا، كما عالج صعود الطريقة الرفاعية في الفترة الثانية للتنظيمات، وأهميتها في تعزيز سياسات السلطان عبد الحميد الإسلامية.

٣ - بروز الكيانية الفلسطينية في إثر فشل الحملة المصرية على بلاد الشام: ففي دراسته الرائدة عن متصرفية القدس وأعيان المدينة وصعود سنجق القدس في نهايات القرن التاسع عشر، عالج أبو منة أهمية فلسطين العثمانية ككيان ذي حكم ذاتي حاولت الإدارة العثمانية من خلاله أن تتصدى للأطماع الأوروبية في البلاد المقدسة من جهة، ولالأطماع المصرية في بلاد الشام من جهة أخرى.

٤ - العقيدة العثمانية ودور المسيحيين العرب في النضال ضد القوقعة الطائفية: في دراسته عن المسيحيين العرب بين العثمانية والتيار القومي السوري، سلط أبو منة الضوء على أهمية أفكار بطرس البستاني ومجموعة "نفير سوريا" الداعية إلى تبني فكرة العثمانية الجديدة كإطار علماني يجمع بين الانتماء إلى البعث النهضوي العربي، وبين المواطنة العثمانية ضد التيارات الطائفية في بلاد الشام. وقد التقت هذه الفكرة مع الإصلاحات القانونية والإدارية لمدحت باشا (أبو الدستور العثماني) في أثناء ولايته كحاكم سورية خلال الفترة ١٨٧٨ - ١٨٨٠.

٥ - إعادة النظر في طبيعة النظام الحميدي: بدأ أبو منة نشاطه العلمي في دراسة علاقة نظام السلطان عبد الحميد الثاني بالسلطة الهاشمية في الحجاز، فبين أن صراع الأستانة مع الوهابيين من ناحية، وشرفاء مكة من ناحية أخرى، كان محكوماً بفكرة استئثار السلطنة بالخلافة على المسلمين داخل السلطنة وخارجها. وتبلور هذا التحليل لاحقاً في دراسته عن "المستشارين العرب للسلطان عبد الحميد" وعلى رأسهم الصوفي المثير للجدل الشيخ أبو الهدى الصيادي (المنحدر من أصول شامية). وتميزت مساهمات أبو منة بتقويض الاعتقاد السائد في التأريخ العربي والتركي الحديث للدولة العثمانية، والذي صور دور المستشارين على أنه صراع قومي بين الأتراك والعرب، كما أنه أزال الغشاوة عن طبيعة دور الدين والطرق الصوفية تحديداً في بلورة السياسات العثمانية المتعاقبة تجاه الحكم والولايات العربية.

كان حديثنا مع الدكتور بطرس أبو منة عن المرحلة العثمانية المتأخرة في فلسطين، وأيضاً عن مرحلة الانتداب البريطاني وما بعد النكبة، وعن التجربة الشخصية لهذه القامة الفلسطينية الأكاديمية الرفيعة.



من الجامعة العبرية إلى أكسفورد

مدرسة المعارف هناك، وبعد ربيع سنة ١٩٤٨ توقفت عن التعليم الثانوي، أمّا دراستي المتبقية فكانت باجتهاد شخصي. وفي سنة ١٩٥٣ تقدمت إلى امتحان الثانوية العامة "الإسرائيلية"، وبعد ذلك التحقت بالجامعة العبرية في القدس، وهناك تبلور التفكير التاريخي لديّ. كانت الجامعة تدرّس موضوعين، وقد درست التاريخ العام والفلسفة. وفي التاريخ العام كان أستاذي يعقوب ظلمون، وكان كما أذكر من خريجي جامعة لندن، وهو أول من ساعدني على بلورة الفكر التاريخي لديّ، ويمكنني القول

■ ما هي التأثيرات الأساسية في تبلور فكر بطرس أبو مئة؟

□ أعتبر أن المسألة الفكرية تبلورت لديّ في مرحلة الجامعة. ففي المرحلة الثانوية درست في المدرسة العامرية في يافا، وكنت أسافر يومياً من اللد إلى يافا، لكن في منتصف الصف الثالث الثانوي لم أعد أستطيع الذهاب إلى يافا بسبب انقطاع الطريق جرّاء المعارك التي كانت تحدث في حينه بين العصابات الصهيونية والفلسطينيين.

ولدت في مدينة الرملة وعشت وتربيت في اللد وحصلت على تعليمي الأساسي في

للعثمانيين، وكان المستشرقون الألمان يشعرون بأنهم قريبون من العثمانيين من عدة نواحٍ: عسكرية واقتصادية وغيرها، لكن تدريس التاريخ العثماني لم يقتصر على ألمانيا وحدها، بل كان مستشرقون من دول أخرى في أوروبا يهتمون أيضاً بالتاريخ العثماني.

بعد حصولي على درجة الماجستير في التاريخ العثماني من الجامعة العبرية، كتبت إلى الأستاذ ألبرت حوراني، وكان يعمل رئيساً لمعهد الشرق الأوسط في جامعة أكسفورد، طالباً الالتحاق بالمعهد، والأستاذ حوراني هو من أصل عربي لبناني. وبالمناسبة، فإن شهادته أمام اللجنة الأنجلو-أميركية في سنة ١٩٤٦ كانت أفضل شهادة من الجانب العربي بالنسبة إلى فلسطين، وقد نشر شهادته هذه في كتيب صغير لكنه مكتوب بعمق، ومن يقرأه يفهم جيداً قضية فلسطين والصهيونية ومطامعها، والسياسة البريطانية وأخطاءها في المنطقة، طبعاً من وجهة نظره.

■ هل كنت تبحث عن موضوع معين في أكسفورد؟

□ إنه الموضوع نفسه الذي درسته مع الأستاذ هيد وكان يتعلق بسياسة السلطان عبد الحميد الثاني في الولايات العربية، وهو الموضوع الذي كتبت عنه لاحقاً. وقد اخترت البحث في هذا الموضوع لاعتقادي أنه لا يمكن فهم تاريخ الولايات العربية من دون فهم فترة حكمه، لكن تبين لي لاحقاً، وعلى الرغم من صحة ما سلف، أن سياسة عبد الحميد كانت بمثابة ردة فعل على مسيرة الإصلاحات العثمانية في النصف الثاني

إنه كان أكاديمياً متحرراً ولا يفرّق بين الطلاب، بل ينظر إلى كل واحد منهم وفق استعداده وقدراته، ومعه أنهيت دراستي لمرحلة البكالوريوس في التاريخ. لكن في خمسينيات القرن الماضي، وعلى الرغم من أن المنطقة كانت تعيش قلقاً، وعلى الرغم من ظهور الرئيس عبد الناصر ودعوته إلى القومية العربية، فإننا كنّا ندرس التاريخ العام من دون أن نعرف شيئاً عن بلادنا ومنطقتنا، فالتاريخ العام كان يتناول على الأغلب تاريخ أوروبا، بل إن أي إشارة أو تعليق على تاريخ المنطقة كانا يأتیان عرضاً ومن منظور أوروبي.

بعد انتهائي من دراسة البكالوريوس، أسست الجامعة موضوعاً جديداً هو تاريخ الشرق الأوسط، وكانت تجربة جديدة وربما تقليداً لبعض الجامعات الأميركية آنذاك، فالتحقت بهذا الموضوع. وقد استفدت كثيراً من وجود الأستاذ أوريئيل هيد الذي كان متخصصاً بالتاريخ العثماني، وكان هو أحد المحفزات التي دفعتني إلى دراسة التاريخ، إذ شعرت بأن ذلك يتماشى مع رغبتني في فهم تاريخ المنطقة. كما تعلمت اللغة التركية الحديثة على يده، ودرست أيضاً، أنا وثلاثة من زملائي فقط، اللغة العثمانية، وكنت أنا العربي الوحيد بينهم، وتطلعت بالتالي في أسس التاريخ العثماني على يد الأستاذ هيد الذي لاقيت منه كل تشجيع.

■ أنت درست التاريخ العثماني في الجامعة العبرية، ثم انتقلت إلى أكسفورد؟

□ كان التاريخ العثماني هو تخصص الأستاذ هيد، فأوروبياً كان الألمان يهتمون بالتاريخ العثماني لأنهم كانوا حلفاء

أي التآخي بين جميع الشعوب القاطنة في الدولة، نجد أن سياسة السلطان كانت تدعو إلى الوحدة الإسلامية. وعليه، فبعد كتابتي بحثاً مختصراً عن السلطان عبد الحميد الثاني وجدت أنه لا بد من الرجوع إلى الوراء عدة أجيال كي يتسنى فهم سياسة هذا السلطان، والتي لم تكن سهلة قط.

من فترة التنظيمات (بعد سنة ١٨٥٦). فقد كانت سياسة الدولة آنذاك ذات طابع ليبرالي ومنفتحة على الغرب، بينما كانت سياسة السلطان عبد الحميد الثاني محافظة وعمادها نظام الخلافة الإسلامية التقليدي. وفيما كانت سياسة التنظيمات بعد سنة ١٨٥٦ قائمة على مبدأ المواطنة العثمانية،

النهضة العربية في ظل العثمانية

الوسطى (توفي في سنة ١٢٤٠)، وأمر ببناء قبّة على قبره وجامع وخانقاه ومدرسة وأوقف لها الأوقاف. وعلى الرغم من مرور أكثر من ٢٥٠ عاماً على وفاته، فإنّ الدمشقيين لم يببنوا أي ضريح لابن عربي، على الرغم من شهرته وأهميته الكبيرة في ميدان التصوف. وأنا أذكر ذلك كي أبيّن الفرق بين توجّه العلماء العرب نحو الإسلام حتى ذلك الحين، وتوجّه الأتراك نحوه، الذين وعلى مدى تاريخهم شجّعوا الطرق الصوفية كما ذكرت، واعتقدوا في مشايخها. وعليه، هنالك العديد من الطرق الصوفية التي ظهرت في الأناضول، أو قامت وترعرعت فيه، وقد شجّع العثمانيون هذه الطرق لأنهم وجدوها قريبة إلى مشاعر الناس وتقواهم. إن هذا التوجه لا يقلل من إيمانهم، وإنما يدل على أنهم تعاملوا مع الإسلام بتوجه يختلف بعض الشيء عن توجّه العلماء العرب.

ولم يشجع العرب، وخصوصاً في الشام وفلسطين والعراق، وبالدرجة ذاتها، الطرق الصوفية، كما شجّعها، في الأناضول

■ لقد ركزت لاحقاً على موضوعين يتعلّقان بهذه الفترة، الأول اهتمامك ببطرس البستاني وكتاباتة، والثاني دراستك المهمة عن المستشارين العرب للسلطان عبد الحميد، وخصوصاً الشيخ أبو الهدى الصيادي؛ فلماذا صببت اهتمامك على المستشارين؟

□ أبو الهدى الصيادي كان شيخاً صوفياً من عائلة بسيطة ولم يكن من سلالة كبار المشايخ المعروفين، لكنه كان شديد الذكاء. وكان العثمانيون يركزون على التصوف، والتصوف العثماني ظاهرة ذات صلة بإيمان العثمانيين بالإسلام. فاذا نظرنا إلى سياسة السلطنة العثمانية تجاه الإسلام في تركيا وفي المناطق التي كانت تابعة لهم، نجد أنهم كانوا يشجعون التصوف؛ فالسلطان سليم الأول مثلاً احتل دمشق في سنة ١٥١٦، ومصر في السنة التالية، وقام بعد عودته من القاهرة إلى الشام بزيارة قبر الشيخ محيي الدين ابن عربي الذي كان من كبار شيوخ الصوفية في القرون

العثمانية. وكى نفهم تاريخ العرب الحديث علينا، فضلاً عن ذلك، دراسة اللغة التركية الحديثة لأن المؤرخين الأتراك المحدثين يكتبون بها.

■ اهتمت كثيراً باللغة التركية ودرست أفكار بطرس البستاني و"نفيير سوريا" ومجلة "الجنان" التي أنشأها بمعونة ابنه سليم. فهل ما كتبتة عن "نفيير سوريا" وعن مبدأ العثمانية التي تبناها بطرس البستاني تغيرت مع الزمن، أم إنك ما زلت تعتقد أن هذه الأفكار كان لها الدور الطبيعي؟

□ كتبت مؤخراً مقالة عن فترة راشد باشا في سورية، إذ إنه بعدما أنشئت متصرفية جبل لبنان في سنة ١٨٦١ خشي الباب العالي (فؤاد باشا وعالي باشا وغيرهما من كبار رجال الدولة) كثيراً من عاقبة وجود كيان شبه مستقل تحت وصاية ونفوذ أجنيين، هو متصرفية جبل لبنان. فقد كان الموظفون والعاملون والشرطة والمحاكم ما عدا المتصرف جميعهم محلّيون، وعليه، فإن الدولة العثمانية تخوفت من أن يكون لهذا الكيان تأثير في المتصرفيات السورية المحيطة بجبل لبنان، وأول خطوة قام بها الباب العالي لمواجهة هذه المعضلة كانت توحيد ولاية الشام مع ولاية صيدا (ولاية بيروت لاحقاً) بوحدة واحدة تحت إدارة وإل واحد، وذلك في سنة ١٨٦٥. كما أصبحت المنطقة الممتدة من جنوبي حلب إلى حدود مصر ولاية واحدة أطلق عليها اسم ولاية سوريا (سورية)، وهذا التحول يلفت نظرنا إلى أمرين: الأول أن الحكومة العثمانية لم تكن تسمي اسم الولاية باسم البلاد، أي أن

مثلاً، سلاطين آل عثمان الذين عملوا على تشجيع الصوفية بين العرب بأن منحوا الصوفيين الأوقاف، ونجحوا إلى حد معين، لكن الإسلام بالنسبة إلى العلماء العرب كان الإسلام السنّي الأورثوذكسي الذي لا يرضى بالواسطة (يعني الشيخ الصوفي) بين الخالق عز وجل وبين المخلوق.

■ نُسبت رجعية النظام العثماني آنذاك من قبل البعض إلى المستشارين العرب، لكنك شخصياً رفضت هذا التفسير.

□ راح السلطان عبد الحميد، في فترة من فترات حكمه، يفضّل عزة العابد على أبي الهدى؛ فعزة كان يمثل جيلاً جديداً، وكان ينظر إلى الحياة السياسية بمنظار بعيد عن الصوفية، وكان له نفوذ كبير في بلاط عبد الحميد. وفضلاً عنه، كان هناك أيضاً عدد من العرب ضمن حاشية عبد الحميد، لكنهم لم يكونوا كثيراً كما يشاع، ففي آخر حكمه لم يزد عدد الموظفين العرب عن ١٥٪ في جميع الولايات العربية، والبقية كانوا من الأتراك وغير الأتراك. وكانت اللغة الرسمية هي اللغة التركية، وقد فرض عبد الحميد في تسعينيات القرن التاسع عشر تعليم اللغة التركية في المدارس في الولايات العربية، وحتى في المدارس الأجنبية، وهناك وثائق تبين أنه طلب من مدارس البروتستانت في لبنان أن تعلم اللغة التركية كموضوع إلزامي، ولم يكن هذا الإلزام موجوداً من قبل - هذا قبل عودة الدستور بـ ١٥ عاماً تقريباً - لذلك أقول إننا لا نفهم عبد الحميد كثيراً، وبالتالي يجب أن ندرس التاريخ العثماني، وخصوصاً في الولايات العربية، بعمق أكثر، الأمر الذي يفرض علينا أن نتعلم اللغة

الجديدة فمن الواجب إذاً أن نعمل على تطوير المنطقة المحيطة به، وإلا فإن الرغبة في الانضمام إليه تشتد، وخصوصاً أن تياراً في المتصرفيات المتاخمة لمتصرفية جبل لبنان ظهر وبدأ يدعو إلى الالتحاق به، هذا فضلاً عن سياسة الباب العالي، غير المعلنة، بسدّ الفجوة بين سورية وجبل لبنان. فدعا راشد باشا إلى عقد هذا المجلس، وأُخذت قرارات فيه كان من أهمها تشجيع الأدب العربي والنهضة العربية، وذلك على أمل بأن تقوم النهضة بالتقريب بين مثقفي جبل لبنان وبين المناطق الأخرى، ولا سيما أن أصل النهضة الثقافية العربية، وقبل أن يبدأ في بيروت أو في مصر، بدأ في جبل لبنان في زمن الأمير بشير الثاني، أي أن بدايات النهضة العربية نشأت في جبل لبنان.

■ أنت تشير بذلك إلى أن الحكومة العثمانية شجعت النهضة العربية؟

□ يبدو أن فؤاد باشا وعالي باشا من مركز القيادة في إستانبول شجعا هذه السياسة. ومن المجالات المهمة مجلة "الجنان" وكانت تصدر مرتين بالشهر، وهي أهم من نشرة "نفيير سوريا"، وكانت بمستوى راق فكرياً وثقافياً. ونحن نجد أن بطرس البستاني وابنه سليم عبّرا في هذه المجلة عن تفكيرهما ورؤياهما، وربما بتأثير راشد باشا الذي منحهما حمايته وتشجيعه، وهذا موضح في الجزء الأول من "الجنان". وقد استمرت هذه المجلة في الصدور ١٦ عاماً خلال الفترة ١٨٧٠ - ١٨٨٦.

شدد بطرس البستاني على تيار الوطنية السورية، فضلاً عن دعوته إلى النهضة

اسم سورية لم يكن يُستعمل في السابق، وإنما كانوا يستعملون اسم بلاد الشام، أو عربستان، وعليه فإن مصطلح سورية استُعمل في العهد العثماني لأول مرة بصورة رسمية: الأمر الثاني هو أن العثمانيين كانوا يسمّون الولاية بحسب اسم المركز، مثل: ولاية حلب؛ ولاية صيدا؛ ولاية بغداد... ولم يُسمّوا ولاية باسم البلاد. وكان هذا شيئاً جديداً قاموا به برأيي جزاء خشيتهم من تبعات الكيان الذي استجدّ في جبل لبنان بعد سنة ١٨٦١، وقد أرسلوا راشد باشا والياً على سورية، وهو مولود في مصر ووالده كان موظفاً كبيراً لدى محمد علي باشا الذي كان قد أرسل راشد كي يتعلم في فرنسا، فمكث هناك خمسة أعوام تعلّم فيها اللغة الفرنسية، وانفتح على الفكر الأوروبي وعلى التوجه الليبرالي، وعلى ثقافة الغير. وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال هو: لماذا أرسل مثل هذا الشخص إلى سورية؟... لقد أرسله عالي باشا لأنه رأى فيه المقدرّة والكفاءة، كما أنه كان يجهزه كوريث له في المستقبل. وصل راشد إلى سورية في أيلول / سبتمبر ١٨٦٦، وكانت عاصمة الولاية هي دمشق الشام، وتقرّب كثيراً من بطرس البستاني وساعده على نشر الجرائد والمجلات التي راح ينشرها منذ سنة ١٨٧٠.

وبعد مجيئه إلى سورية بعام تقريباً، عقد راشد باشا مجلساً عمومياً شمل ممثلين عن كل متصرفيات سورية (ما عدا جبل لبنان)، وعُقد الاجتماع في بيروت في كانون الأول / ديسمبر ١٨٦٧ واستمر أسبوعين بُحثت خلالهما عدة مواضيع تهدف إلى تطوير سورية، وذلك من منطلق أن جبل لبنان يتقدم ويزداد ازدهاراً تحت إدارته

من الجواب في "الجنان". ففي أول ٢١ شهراً من صدورها كانت "الجنان" حرّة في نشر أفكارها السياسية، وكانت تؤمن بأن أفضل نظام للدولة العثمانية هو تكوينها كاتحاد فدرالي بين مختلف الولايات، وقد قدّم البستاني، كمثال لذلك، الولايات المتحدة الأميركية بكونها "وطناً حوى أوطاناً كثيرة". وعليه، كي نفهم فكرة سورية التي دعا إليها البستاني، فإن علينا أن نعود وندرس "الجنان" في أول عام ونصف عام من صدورها.

وبرأيي فإن الدافع وراء هذا هو متصرفية جبل لبنان والتخوف من أن يتعزز النفوذ الأجنبي في جبل لبنان، وبالتالي، من أن يكون له أبعاد على المناطق المحيطة به، وخصوصاً أنه نشأت رغبة في الالتحاق بالجبل في المناطق المحيطة به، وقد طالبت تلك المناطق بذلك علناً.

الأدبية. ففي أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر، وفي خطبة سمّاها "خطبة في آداب العرب" (شباط / فبراير ١٨٥٩)، دعا البستاني إلى نهضة ثقافية عربية، وكرر ذلك في "الجنان" بتوسع وعمق أكبر، كما دعا إلى فكرة الوحدة السورية. وكانت هاتان الدعوتان متلازمتين، وهذا يحتاج إلى تفسير: فالعثمانيون في فترة التنظيمات المتأخرة هم الذين وحّدوا سورية لأول مرة بعد المماليك الذين انتهى حكمهم في أوائل القرن السادس عشر. ففي البدء قسّم العثمانيون سورية إلى أربع ولايات (الشام وحب وطرابلس ثم صيدا)، لكنهم بعد ثلاثة قرون ونصف قرن من احتلالها عادوا ووحّدوها (من دون حلب) وذلك في سنة ١٨٦٥ كما ذكرنا. وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال: لماذا، وما السبب، وهل من أبعاد أو أغراض سياسية وراء ذلك؟ نرى جانباً

السلطان عبد الحميد والعودة إلى الوراء

السوريين واللبنانيين يهاجر إلى مصر، ومن الجائر أنه جرت محاولات لتشجيع هؤلاء على أن يتركوا سورية ولبنان. وقد ظهر في الوقت نفسه ما يُعرف بـ "المكتوبجي"، وهو الموكل إليه الرقابة على المطبوعات، وكان "المكتوبجي" متشديداً في رقابته، ولم يستطع كثيرون من الكتاب والمثقفين تحمّل ذلك فهاجروا إلى مصر، ومن هنا نرى انتقال موجة ثانية من النهضة من سورية إلى مصر. وفيما يتعلق بجمال الدين الأفغاني، فأنت تعود بنا ثلاثين عاماً إلى الوراء، وعلينا أن نخرج من هذا الإطار. فجمال الدين الأفغاني

■ هنا يُطرح سؤال عن الجامعه الإسلامية وجمال الدين الأفغاني وموقف السلطان عبد الحميد منهما... أنت لم تتحدث سابقاً عن الأفغاني ودوره، وأيضاً يبدو أن الدولة العثمانية كانت قوية إلى درجة أنها تستطيع أن تروّج اللغة والثقافة العربيتين من دون ربطهما بالشعور القومي، ومن دون الخوف من أن يؤدي ذلك إلى الانفصال القومي.

□ يلاحظ أنه بعد وصول السلطان عبد الحميد إلى الحكم راح كثير من الأدباء والمثقفين

. الشاذلية الشيخ ظافر المدني الذي كان هو الآخر من المقربين للسلطان، وذلك بهدف نشر التصوف في تلك الولايات. وفي اعتقادي، فإن السلطان عبد الحميد لم يدعُ إلى الوحدة الإسلامية داخل الولايات العثمانية، إذ لم يكن ذلك من ضمن أولوياته. ولا بد من أن نميز بين الدعوة إلى خلافة آل عثمان والدعوة إلى الجامعة الإسلامية، فتشجيع الطرق الصوفية، في نظري، جاء ليخدم الدعوة إلى الخلافة، بينما كانت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية من أولويات السلطان للبلاد الإسلامية خارج الدولة، أي بالنسبة إلى مصر وتونس والهند وليبيا وغيرها. وكانت تونس ومصر منذ أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر تحت الاستعمار الغربي.

إن ما يُكتب بالعربية عن السلطان عبد الحميد هو أنه رفض المشروع الصهيوني، الأمر الذي أضفى عليه هالة من التقديس، لكن سياسته بصورة عامة حدّت من انتشار النهضة الأدبية والثقافية في الولايات العربية، وأضعفت أسس التماسك بين أبناء الشعب الواحد.

عندما جاء إلى إستانبول لم يكن يتمتع بنفوذ هناك، ولا حاجة إلى التأكيد أنه لم يكن لديه أي نفوذ داخل الحلقة المحيطة بعبد الحميد، لكن السلطان استخدم وجوده من أجل الدعاية، وبالتالي، فإن الأفغاني خدم السلطان عبد الحميد بمجرد حلوله ضيفاً عليه، الأمر الذي أعطى صورة إيجابية عن الحكم الحميدي أمام الشعوب الإسلامية. ولم يخدم الأفغاني كمستشار لدى عبد الحميد، وإنما كان تحت مراقبته. بعبارة أخرى لم يؤدّ جمال الدين الأفغاني في إستانبول الدور الذي أداه في القاهرة.

■ هل القصد هنا أن أفكار الجامع الإسلامية كانت تخدم السلطان كمُنبر دعائي وليس من أجل التعبئة المحلية؟

□ إن سياسة السلطان عبد الحميد في الولايات العربية بشأن الخلافة اعتمدت بدرجة كبيرة في الأعوام العشرين الأولى من حكمه على شيخ الطريقة الرفاعية الشيخ أبو الهدى الصيادي، وعلى شيخ الطريقة المدنية

النقشبندية

الأوسط الحديث"، نتوصل إلى هذا الرأي. فمع أنه كان يكتب باختصار، إلا إن كتاباته تميزت بالعمق. إنه مفكر فلسفي - اجتماعي يحاول تفسير التاريخ أكثر من كونه مؤرخاً محترفاً. وبعد كل لقاء معه كان يخرج الطالب أكثر ثراءً. أمّا فهمه للفكر العربي الحديث فلم يجاره فيه أحد. وكتابه الذي يحمل هذا العنوان لا يزال بعد أكثر من خمسين عاماً أفضل ما كُتب في هذا الموضوع. ولقد قمت

■ ما هو تأثير ألبرت حوراني في تفكيرك؟

□ كان ألبرت حوراني يفصّل الحكم العثماني على الحكم الإنجليزي أو الفرنسي، ومهما تكن مساوياً الحكم العثماني، فإن هذا الحكم يبقى في نظره أفضل من السيطرة الغربية. وإذا قرأنا بعمق كتابه عن الفكر العربي في عصر النهضة، أو كتابه الأخير عن تاريخ الشعوب العربية، ولديه أيضاً مقالة صغيرة (محاضرة) عنوانها "الأسس العثمانية للشرق

المجددية، وتأسست بعدما انتقلت النقشبندية الأولى من وسط آسيا إلى الهند واعتقد بها الشيخ أحمد السرهندي في الهند وطورها، داعياً إلى تجديد الشريعة بعد ألف عام على الإسلام، وقد انتمى كبار العلماء إلى هذه الطريقة؛ التيار الثالث هو النقشبندية الخالدية، نسبة إلى الشيخ خالد، وهو من أصل كردي وظهر في العراق في أوائل القرن التاسع عشر وسافر إلى الهند وأخذ طريقه المجددية عن شيخها في دلهي ونشرها في العراق والشام، كما انتشرت في إستانبول والأناضول. وبعد دراستي الطريقة النقشبندية تحوّلت عن دراسة أبي الهدى إلى دراسته هذه التيارات الثلاثة، ويمكنني أن أقول أنني أول من أظهر شخصية الشيخ خالد وتأثيره في الحياة في الدولة العثمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر. فمثلاً كتبت مقالة عن خط الكلخانة الذي ظهر في بداية التنظيمات، أحض فيها أي تأثير أجنبي في وضع هذا الخط، وبيّنت أنه أتى من النقشبندية المجددية لأن الشيخ خالد كان ينتمي إلى هذه الطريقة. وقد غيّرت هذه المقالة المفاهيم عن فترة التنظيمات الأولى، أي حتى سنة ١٨٥٦.

بمراسلته قبل التحاقني بأكسفورد وأخبرته أنني أود العمل على بحث عن عبد الحميد استمراراً لموضوع كنت قد كتبتة في الجامعة العبرية. ولما التقيت به أول مرة قلت له أود استكمال البحث عن السلطان، ولم أكن أدري إلى أي درجة كان هذا البحث متشعباً، فأحضر لي خلال الأسبوع الأول من السنة الدراسية ثلاثين كراساً تقريباً كانت جميعها لأبي الهدى، ومكتوبة باللغة العربية، وقد استغرقتني وقت لقراءتها وفهماها. وأخيراً كتبت المقال عن أبي الهدى الصيادي، وترجم بعد ذلك إلى اللغة العربية.

كنت أتساءل دائماً ما الذي دفع السلطان عبد الحميد إلى تشجيع هؤلاء المشايخ لتعميم المعرفة الصوفية بين قراء العربية؟ فعدت إلى فترة التنظيمات وهي فترة الإصلاح في الدولة، وتبيّن لي أنه في الفترة الأولى للتنظيمات كان هناك تأثير للطريقة النقشبندية - المجددية والخالدية في حركة الإصلاح. لقد وصلت هذه الطرق إلى غرب آسيا قادمة من الهند، وهي تقسم إلى ثلاثة تيارات: النقشبندية الأولى الذي جاء من وسط آسيا، وأسس بهاء الدين نقشبند؛ النقشبندية

جذور التنظيمات ودور المسيحيين

النقشبندية المجددية والنقشبندية الخالدية. وبعد نهاية الحرب، أي بعد سنة ١٨٥٦، وبعد سيطرة عالي باشا وفؤاد باشا على الباب العالي (وهو مقر الصدر الأعظم ومركز الحكم) في إستانبول ومساندة الإنجليز والفرنسيين لجهودهما، راحت الإصلاحات تتأثر بالنظم الغربية، وكانت حرب القرم مفصلية في هذا الموضوع.

■ إذاً وجهة نظرك هي أن جذور بداية التنظيمات كانت إسلامية، وذلك خلافاً للتيار السائد والقائل بالجذور الأوروبية لهذه التنظيمات؟

□ لقد بقيت فترة الإصلاح، حتى سنة ١٨٥٤، أي حتى بداية حرب القرم، تحت تأثير الرغبة في سيادة الشريعة كما جاء في

■ ما هو دور المثقفين المسيحيين في بدايات النهضة؟ وكيف كانت نظرة الإصلاحيين المسلمين إلى المسيحيين؟

□ لم يكن للمسيحيين أي مشاركة في تحديد وجهة التنظيمات، فنحن لا نجد مسيحياً واحداً بين صانعي التنظيمات. لقد انحصرت هذه "النهضة" في يد الأتراك. كما أيقظ محمد علي، وهو ليس ألبانياً كما يشاع، وإنما من أصل تركي أيضاً، نهضة جاءت لتخدم مشروعه في مصر. أما بشأن النهضة الثقافية العربية فإن بداية نشأتها كانت في لبنان، وفي بيروت تحديداً. فبعد استقرار حكم الأمير بشير الثاني في الجبل، نشأت حوله حلقة من المثقفين مثل ناصيف اليازجي وبطرس كرامة والأمير حيدر الشهابي وغيرهم. ومن بعده تجدد النشاط الثقافي في خمسينيات القرن التاسع عشر في بيروت بتوجيه من بطرس البستاني ومجموعة من المثقفين المسيحيين والمسلمين. وفي سنة ١٨٥٩، وبعد خطبة البستاني التي أشرنا إليها أعلاه، أسس حسين بيهم وبطرس البستاني ومجموعه من أصدقائهما من المسلمين والمسيحيين (الذين لم يكونوا يفرقون بين بعضهم البعض) "العمدة الأدبية لإشهار الكتب العربية"، وذلك من أجل طباعة كتب عربية ونشرها. كذلك قامت مطبعة الجوائب في إستانبول بنشر العديد من المخطوطات العربية.

إن دراسة النهضة في بيروت موضوع معروف، والمهم أن هذا التيار انتقل إلى مصر في زمن السلطان عبد الحميد الثاني، وكان أكثر الذين هاجروا إلى مصر من المسيحيين، وقد أحسن الخديوي إسماعيل وفادتهم، فقاموا بنشر المجالات والجرائد وترجمة الكتب من اللغات الأوروبية، فأعطوا لهذا التيار زخماً أدبياً. ثقافياً. وحركة الترجمة هذه هي جزء أساسي من النهضة. وبوجود هؤلاء

المهاجرين انتقل مركز النهضة إلى مصر. بعد وفاة عالي باشا (١٨٧١) صعد إلى الحكم في إستانبول تيار سياسي بزعامة محمود نديم باشا، بدأ بالتضييق على هؤلاء الكتاب. وقد كتب البستاني في "الجنان" قائلاً: "منذ صعود الباشا للحكم ونحن لا نستطيع الكتابة بحرية". بعبارة أخرى، لقد وقّر عالي باشا وفؤاد باشا حرية الرأي بدرجة ليست قليلة، تشبهاً بدول أوروبا الغربية، وهذه إحدى مميزات التنظيمات في عهدهما، لكن بعد التنظيمات ضاق عليهما الخناق.

■ ما تحدثت به يثير سؤالاً عن فكرة شيخوخة الدولة وانهارها في تلك الفترة، بينما أنت تتحدث عن حالة صعود في الفترة نفسها؟

□ إذا درست تاريخ الدولة العثمانية من مصادر أوروبية، وتفحصت الأرشيفات الأوروبية، فسترى أن الدبلوماسيين الأجانب يتحدثون عن قرب انهيار الدولة ويخططون لورايتها. أما إذا درستها من الداخل وبحثت في الأرشيف العثماني وفي كتابات المؤرخين العثمانيين فستجد أن التنظيمات ما هي إلا نهضة غيرت وجه الحكم. فممنذ العقد الأخير لحكم السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩)، إلى بداية صعود حفيده السلطان عبد الحميد، نجد أن الدولة تمر في مرحلة صعود وازدهار.

■ لماذا لا تشير إلى دور مدحت باشا في هذا المجال؟

□ اعتقد أن هناك مبالغة في تقويم مدحت الذي كان رجل إدارة (بيروقراطياً) متميزاً، لكن كانت تنقصه الحنكة السياسية على الرغم من أنه كان تلميذ فؤاد باشا. وأهم دور قام به هو المشاركة في الانقلاب ضد

وعلّق الدستور وأقفل مجلس المبعوثان لأنه رأى أن المقصد من هذه الأمور كان الحدّ من صلاحيات السلطان المطلقة، فاستعاد بذلك طبيعة الحكم التي سبقت التنظيمات، وحكم أكثر من ثلاثين عاماً حكماً مطلقاً، وانتقم من مدحت باشا وحكم عليه بالسجن وأرسله إلى قلعة الطائف حيث قضى نحبه بعد ذلك بقليل.

السلطان عبد العزيز في سنة ١٨٧٦، وفي أعقاب ذلك كان له بلا شك اليد الطولى في وضع الدستور العثماني وفي دعوة مجلس المبعوثان (أي البرلمان) إلى الانعقاد. وكأحد زعماء الانقلاب اضطر إلى إصعاد السلطان عبد الحميد إلى السلطنة كونه الوريث الشرعي. لقد جمّد السلطان عبد الحميد الإصلاحات

فلسطين في "العثمانية المتأخرة"

الصالح، فتحوّلت الطرق التجارية التي كانت تمر سابقاً من شرق آسيا ومن الهند إلى غربها عبر الخليج الفارسي والبحر الأحمر إلى سورية أو إلى مصر، فأصبح في الإمكان نقل التجارة هذه إلى غرب أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح، الأمر الذي أثار سلباً في السكان في العراق، أو في سورية، أو في مصر. فمثلاً، عندما حارب العثمانيون المماليك في معركة مرج دابق (في سنة ١٥١٦) شمالي حلب لم يكن في خزائن السلطان الغوري، سلطان المماليك، من النقد ما يغطي تكاليف الحرب، لأن البرتغاليين كانوا قد احتلوا عدن وفرضوا الحصار على مدخل البحر الأحمر، كما احتلوا بعد ذلك مضيق هرمز وبنوا قلعة هناك ومنعوا التجارة من المرور إلى الخليج الفارسي، الأمر الذي ترك أثراً في المنطقة كلها، وكان هذا من جملة الأزمات التي واجهها العثمانيون بعد الفتح العثماني لسورية ومصر. وعلى الرغم من ذلك مرت فترة ١٣٠ إلى ١٤٠ عاماً تقريباً، استطاع العثمانيون خلالها أن يسيروا بالبلاد إلى وضع لا يستهان به على الرغم من التقهقر التجاري. لكن هذه الفترة الأولى انتهت بقدوم قبائل من شرق الأردن ودخولها إلى فلسطين.

■ كيف تجلّت فلسطين في دراساتك عن سياسة الدولة العثمانية؟

□ في الحقيقة إن معظم دراساتي تركّزت في القرن التاسع عشر، وذلك لأسباب عديدة منها أنه منذ بدء تخصصي بتاريخ الشرق الأوسط اخترت العمل على القرن التاسع عشر من منطلق أن التطورات التي حدثت في القرن العشرين يعود أساسها إلى القرن التاسع عشر، فلا نستطيع أن نتحدث عن القرن العشرين من دون فهم تاريخ القرن التاسع عشر بعمق. فضلاً عن ذلك، حكم العثمانيون البلاد العربية أربعة قرون لا تزال مجهولة لنا. وكنت قد درست اللغة التركيّه كما ذكرت من أجل دراسة تاريخنا في العهد العثماني خاصة، فاللغات هي أدوات عمل المؤرخ. ولهذين السببين تركّزت دراساتي في القرن التاسع عشر.

وبرأيي يمكن تقسيم تاريخ فلسطين العثمانية إلى ثلاث فترات:

الأولى، هي الفتح العثماني وما يليه من المشاكل التي واجهها العثمانيون في المنطقة عامة، وهي التقهقر الاقتصادي الذي حل بالمنطقة نتيجة اكتشاف رأس الرجاء

المعنيين، حكام جبل لبنان، وبقيت تحت نفوذ حكام جبل لبنان حتى ظهور ظاهر العمر في النصف الأول من القرن الثامن عشر.

إنّاً، شملت فلسطين ثلاث مناطق رئيسية: الجنوب (أي غزة)؛ المركز (القدس)؛ الوسط (منطقة نابلس ومنطقة جنين) والجليل؛ وقد انتهت هذه الفترة بتحويلات في السكان كما أسلفنا.

بدأت الفترة الثانية في تاريخ فلسطين العثمانية بعد منتصف القرن السابع عشر، وسادها تأخر كبير في الحياة الاجتماعية والحياة الاقتصادية، فلم يكن هنالك مركز سلطة قوي كي يفرض نفوذه في المنطقة غير آل طوقان الذين اختلفوا مع آل نمر، فانقسم جبل نابلس على نفسه ودخل في حرب أهلية، بينما لم تستطع الدولة فرض هيبتها لانشغالها بحروب متواصلة مع دول وسط أوروبا وبسبب ضعفها. وتمتد هذه الفترة من منتصف القرن السابع عشر حتى قدوم إبراهيم باشا، أي حتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

فيما يتعلق بالجليل، ففي تلك الفترة، بدأ ينشأ ظاهر العمر، وبدأ الجليل يتحرر من نفوذ لبنان، إذ مرت فترة على الجبل تأخر فيها الحكم وضعف إلى أن أتى الأمير بشير في نهاية القرن الثامن عشر، ففرض نفوذه على المنطقة المحيطة بالجليل واستمر ذلك حتى إبراهيم باشا كما أشرنا.

أمّا الفترة الثالثة فجاءت بعد إبراهيم باشا مباشرة، وهي فترة التنظيمات والفترة الحديثة من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٩١٨.

هذه الفترات الثلاث تشكل تاريخ فلسطين في زمن العثمانيين. والفترة التي بحثت فيها أكثر من غيرها هي الفترة الأخيرة، أي منذ إبراهيم باشا وما بعده. أمّا ما قبل إبراهيم باشا فهنالك بداية أبحاث قام بها الأساتذة

فمنذ نهاية القرن السادس عشر راحت تهاجر قبائل من الجزيرة العربية إلى شرق الأردن، وكعادة البدو أزاحوا السكان القاطنين هناك من أماكنهم، فاستوطنوا في فلسطين، وهنا نرى أنه حدثت فوضى، فقام العثمانيون وأسكنوا مجموعتين من السكان في جبل نابلس (منتصف القرن السابع عشر تقريباً) هم آل طوقان وآل النمر، منظمين بهذا الإجراء منطقة نابلس، كما حملوا هؤلاء مسؤولية حماية قوافل الحج العائده من الحجاز عبر شرق الأردن إلى الشام.

من هنا تبدأ بحسب رأيي الفترة الثانية من تاريخ فلسطين: في الفترة الأولى كان المركز السياسي ومركز الحياة الاقتصادية هما غزة والقدس، وقد بنى العثمانيون خلالها السور في القدس وبعض المرافق الأخرى، وفي غزة أوكلوا الحكم فيها إلى آل رضوان، وعائلة رضوان هي بالأصل عائلة تركية حكمت غزة ومنطقتها وتم توارث الحكم فيها من الأب إلى الابن لمدة ١٥٠ عاماً تقريباً، أي أن عائلة رضوان تسلمت حكم المنطقة الجنوبية من فلسطين كي تقوم بحمايتها من البدو في النقب، وللمحافظة على المسافرين القادمين من مصر إلى الشام وبالعكس. إذاً تتميز هذه الفترة من الحكم العثماني ببروز آل رضوان في غزة، وبالاهتمام العثماني بالقدس بصورة خاصة كي يحافظوا عليها من البدو. وبين هؤلاء الحكام المحليين كان آل طرباي الذين حكموا المنطقة الواقعة إلى الشمال من المنطقة الوسطى (من حيفا إلى خان التجار الواقع إلى الشرق من جنين) وكانت مسؤوليتهم تشمل حماية مقطع الطريق الأوسط. والمنطقة الثالثة من فلسطين هي الجليل، أو ما كان يسمى آنذاك بلاد صغد بحسب اسم المدينة المركزية فيه. وبعد الفتح العثماني بقليل وقعت هذه المنطقة تحت نفوذ

العمر، أضرّ بمستقبل الجيل لعدة أسباب منها مثلا الثورة ضده في سنة ١٧٨٩. إذ جعلته هذه الثورة ينقلب على تجار عكا الأجانب، الفرنسيين والإيطاليين منهم أساساً، وعلى العديد من التجار المحليين، فأخرجهم من عكا، فذهب قسم منهم إلى يافا، وقسم آخر إلى بيروت. وكان عدد سكان بيروت ٦٠٠٠ نسمة في نهاية القرن الثامن عشر، وفي المقابل يُقدّر عدد سكان عكا في حينه بين ١٠,٠٠٠ و١٢,٠٠٠ نسمة. ومنذ ذلك الوقت أصبحت بيروت تصعد وعكا تهبط، وهذه الفترة بحاجة إلى بحث أكثر وأعمق للمراجع العربية والعثمانية، وأحد تلك المراجع هي سجلات المحكمة الشرعية لعكا. ونحن لا نعرف أين ذهبت هذه السجلات، لكن مجلدات بهذا المقدار ليس من السهل أن تُفقد، وقد سمعت من البعض أن هذه السجلات كانت في جامع الجزائر في قبو تحت الأرض، لكن عندما قام أحد زملائي بالبحث عنها لم يجدها.

كانت النظرية السائدة بالنسبة إلى تاريخ الإصلاح في الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر أن جميع عوامل التقدم حدثت بتأثير من الغرب، وأن رجال الدولة العثمانيين راحوا منذ أيام السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) يقلدون النظم المتبعة في بلاد أوروبا الغربية، وبناء عليه فكل تقدم يتحقق كان يُنسب إلى الغرب. وكاد كبار المؤرخين، الأتراك منهم والأوروبيون، يجمعون على ذلك، لكن هناك العديد من الكتاب الأتراك في القرن السابع عشر أو القرن الثامن عشر الذين قالوا إن سبب تقهقر الدولة هو إهمال القوانين الشرعية والنظم السلطانية، وما أعقب ذلك من انتشار للاستبداد. وقد لاقى هذا الرأي مساندة من تعاليم النقشبندية - المجددية والخالدية في القرن التاسع عشر. وهذه الطرق، كما ذكرنا، دعت إلى سيادة الشريعة والقانون في الدولة.

إيمي زينغر ودرور زنيغي في جامعة تل أبيب، وبشارة دوماني من جامعة براون في الولايات المتحدة الذي كتب كتاباً قيماً عن نابلس ومنطقتها. وبهذه المناسبة يجب أن نذكر كتاب إحسان النمر ("تاريخ جبل نابلس والبلقاء"، نابلس: مطبعة النصر التجارية، ٤ مجلدات، ١٩٦١)، وهو كتاب مهم ومليء بالمعلومات عن الفترة الثانية من تاريخ فلسطين. ومع أنه يتحدث عن أمجاد آل النمر، إلا إن المهم هو ما يقدمه من معلومات من خلال بعض الوثائق الأصلية المصورة من سجلات المحكمة الشرعية.

■ يهمننا من هذه المطابقة الزمنية أن نعرف رأيك في مساهمتك أنت في تعديل الرؤية البحثية بالنسبة إلى الفترة العثمانية نوعياً، فنحن نعرف أن التيار القومي في التأريخ هو السائد، ونعرف أنه في الحرب العظمى انتشر استحكام العداء للأتراك في الأوساط العربية الأمر الذي أثار في رؤيتنا إلى طبيعة النظام العثماني. فما هي مساهمتك في إزالة هذه الضبابية عن الفترة الأخيرة؟

□ بالنسبة إلى الجليل، لم أشتغل على الفترتين الأولى والثانية وذلك لسبب بسيط هو أنه توجد مادة مطبوعة عن تلك الفترة. فبين أيدينا يوجد كتاب عن ظاهر العمر هو كتاب ميخائيل الصباغ، وكتاب عن الجزائر، وآخر عن سليمان باشا، وهي مصادر أولية، بينما لا يوجد في المقابل مصادر مماثلة عن المناطق الأخرى إلا كتاب إحسان النمر كما ذكرنا. لقد حاضرت كثيراً عن الفترة الوسطى في تاريخ الجليل، وعن ظاهر العمر والجزائر وسليمان باشا العادل، لكنني لم أنشر ما كتبت. وبرأيي، فإن حكم الجزائر، وبعكس حكم ظاهر

من سلطة المدينة على القرى، وبالتالي وفرت لأعيان المدن نفوذاً واسعاً فيها.

إن ما يميز فلسطين عن غيرها ويعطيها خصوصية، هو الاهتمام الأجنبي المتمثل في السياحة الدينية، والحج إلى الأماكن المقدسة بأعداد كبيرة، وقد ساعد على ذلك استعمال المحركات البخارية والتحول الذي حدث في السفر البحري، فأصبحت السفن أكبر، والسفر فيها أرخص وأسرع وأكثر أمناً. أي أن هذا الاهتمام الأجنبي جعل العثمانيين يوجهون اهتماماً خاصاً إلى فلسطين، ويعملون على تعزيز الحكم العثماني فيها. وهذا الاهتمام الخاص نبع من التخوف من امتداد النفوذ الأجنبي إليها.

■ لكن ألم يكن هناك خصوصية لفلسطين فيما يتعلق بتطبيق قانون الأراضي في سنة ١٨٥٨ وما بعد؟

□ يوجد رابط بين التحول الذي حدث جرّاء تطبيق التنظيمات وبين قانون الأراضي (١٨٥٨)، وكذلك التحول نحو انتقال النفوذ إلى أعيان المدن، وهذه ظاهرة عامة.

في البداية يجب تفسير ما هو قانون الأراضي. سابقاً كانت الأرض في المدينة هي أرض ملك، أما الأرض التي كانت خارج المدينة فهي ميري أو أميري أي ملك للسلطان، لكن ازدياد التجارة مع الغرب، ورغبة التجار الغربيين في المواد الأولية مثل المنتوجات الزراعية من قمح وقطن وشعير، جعلاً للأرض أهمية وثمناً. فالفلاح سابقاً كان يزرع أرضه لاكتفائه الذاتي، لكن بعد توسع العلاقات التجارية مع الدول الغربية أصبح للأرض قيمة، لأنه كلما زاد الإنتاج أصبح المزارع قادراً على بيع إنتاجه والحصول على مدخول أكبر. ومن هنا بدأ الاهتمام بزيادة الإنتاج، وخصوصاً بعد استعمال السفن البخارية، إذ

وقد تأثر دعاة الإصلاح في الفترة الأولى، فضلاً عن الدعوة النقشبنديه - المجددية، بتعاليم أبو حامد الغزالي وكبار المفكرين الإسلاميين. ونحن نرى ذلك بخط الكلخانة إذا تحررنا من الأفكار المسبقة عن تأثير الغرب في الفترة الأولى.

وكي نفهم التنظيمات، فإن علينا أن نقسمها إلى فترتين: الأولى بين سنتي ١٨٣٩ (من خط الكلخانة) و١٨٥٦ (إلى حرب القرم وإعلان خط همايون)، وقد جرى تطبيق الشريعة وساد حكم القانون؛ الثانية بين سنتي ١٨٥٦ و١٨٧٦ حين قام الباب العالي بأخذ العديد من القوانين والنظم المتبعة في الدول الغربية وعمل على تطبيقها في الدولة. وقد واکب هذا التحول في سياسة الدولة تحول اجتماعي: فبينما تكونت الطبقة الحاكمة في الفترة الأولى من العلماء وأبناء الطبقة العليا الذين اعتبروا أنفسهم حماة للشريعة، انتمى رجال الدولة في الفترة الثانية إلى الطبقة الوسطى أو الوسطى الصغرى، كأصحاب الحوانيت وأبناء متوسطي الموظفين الذين لم يحظوا بدراسات دينية كأبناء الطبقة السابقة، وإنما نشأوا في المدارس الحديثة التي أقامها السلطان محمود لتحضير موظفين للدولة.

هكذا فهمت التنظيمات، وهكذا قدمتها للقراري، وأعتقد أن هذا الرأي يلاقي حالياً تأييداً واسعاً في أوساط المتخصصين في القرن التاسع عشر.

■ هل ما قدمته عن فلسطين، يشكل خصوصية، أم إنه ينطبق على المناطق الشامية الأخرى؟

□ تطبيق التنظيمات في فلسطين هو مثل لما حدث في بلاد الشام كلها، وحتى في الأناضول، فقد أقامت التنظيمات نظام حكم مركزياً وقضت على مشايخ النواحي وزادت

كما ذكرنا، بدأ تحول اجتماعي - سياسي في البلاد.

■ ثمة حديث بأن عشرات من الأعيان كانوا يمتلكون ربع الأراضي الزراعية في فلسطين، فهل هناك إحصاءات دقيقة أو شبه دقيقة في هذا المجال؟

□ لا يوجد إحصاء دقيق ولا إحصاء شامل. توجد دراسة سرديّة لبعض النواحي لأمين أبو بكر، لكن المجال مفتوح أمام الباحثين.

■ لكن الغموض لا يشمل الأراضي الخاصة فقط، بل الأراضي الوقفية أيضاً، لأنه يوجد لدينا في فلسطين كم هائل من الأراضي الوقفية، وخصوصاً وقفيات مسيحية أورثوذكسية، لا نعرف حجمها، فأين نجد إحصاء عنها؟

□ نجدها في سجلات الطابو العثمانية.

■ مشايخ المسيحيين لم يقفوا مع الثورة ضد إبراهيم باشا حافظين بذلك مركزهم وقوتهم. وكذلك في موضوع الأراضي، ففي رام الله مثلاً، لوحظ أن المسيحيين سجلوا الأراضي بأسمائهم واشتروا من المناطق المحيطة، أي أن الموضوع لم يقتصر على أعيان المدن، بل إن المسيحيين كحالة خاصة استفادوا من قانون الأراضي، فهل ترى أن وضع المسيحيين كان مختلفاً؟

□ لقد حارب إبراهيم باشا مشايخ منطقة جبل نابلس والخليل خاصة. وكان السلطان محمود الثاني في سنة ١٨٢٨، قبل عدة أعوام من هجوم إبراهيم باشا، قد قام بتحضير هؤلاء وتدريبهم. ويعطي إحسان النمر اسمي اثنين من الأتراك قال إنهما أتيا من إستانبول

أصبح من الممكن نقل مواد كثيرة بتكاليف أقل، الأمر الذي أدى إلى نمو المدن الساحلية. فمثلاً نهضت غزة منذ منتصف القرن التاسع عشر نتيجة تجارة الشعير، فقد كان أهل غزة يزرعون الشعير كثيراً والإنجليز يشترونه من أجل صناعة البيرة وكعلف للخيل.

وهنا تتوضح أهمية الأرض وأهمية امتلاكها، وقد أصبح في الإمكان امتلاك الأراضي لا أن تبقى "ميري"، فالأرض الزراعية أصبحت ذات قيمة، وازدادت مساحة الأراضي المزروعة. عندئذ وضع الباب العالي قانون الأراضي الذي سمح بشراء أراضي من الحكومة في مقابل دفع ثمنها والحصول على "كوشان"، وذلك فضلاً عن دفع الضرائب على المنتوجات، وهذا هو أساس قانون الأراضي، وهو دليل على تحول اقتصادي واجتماعي كبير. إن التحول الاجتماعي مهم للغاية، والسؤال هو: من الذي كان في استطاعته أن يمتلك هذه الأراضي؟ فالفلاح البسيط لا يستطيع أن يدفع الثمن إلى الحكومة أو أن يشتري أرضاً أو أن يسجل أرضاً معينة باسمه، لكن أعيان المدن قاموا في كثير من الحالات بتسجيل الأراضي بأسمائهم، وهذا بداية ما نسميه الإقطاع أو شبه الإقطاع، وهو ليس مماثلاً لإقطاع القرون الوسطى، بل إنه إقطاع من نوع آخر. بعبارة أخرى، إن أعيان المدن هم الذين استفادوا من قانون الأراضي وأصبحوا ملائكين. إن كل ما كانت الدولة تريده هو المال، وبالتالي هؤلاء الملاكون هم الذين كان في استطاعتهم دفع الضريبة السنوية عن المنتج وضرية الأراضي، وعليه فقد استفادت الحكومة العثمانية من هذا التحول.

فضلاً عمّا سبق، أصبح أعيان المدن هم زعماء البلاد. لقد كانت الزعامة سابقاً لأعيان المدن في داخل المدينة، أمّا بعد ذلك فأصبح نفوذهم يشمل المتصرفية كلها. ومن هنا،

لحرب للقضاء على محمد علي كما عمل في الأناضول وقضى على جميع الإمارات التي أنشأتها بعض العائلات (ما يُعرف باسم أمراء الأعماق)، وقد بدأ محمد علي بالهجوم قبل أن يبدأ به السلطان الذي يتمتع بنفوذ معنوي لا يملكه محمد علي.

ودرباً مشايخ النواحي في منطقة نابلس. ويبدو أن السلطان محمود كان يحضّر لحرب ضد محمد علي، ومن يدعي أن محمد علي كان يريد التوسع وأن السلطان وعده إذا ساعده في اليونان بإعطائه سورية، فإنه يجافي الحقيقة. محمود الثاني كان يحضّر

تأثير السياسة التعليمية الإنجليزية

الذين استطاعوا أن يدخلوا بين هاتين الجماعتين ويضعفوهما.

ويمكننا اعتبار اللد مثلاً لكثير من المدن في فلسطين، وقد لاحظت هذا في رسالة الدكتوراه لمصطفى عباسي عن صفد، فهناك تشابه واضح. وعلى هذا الأساس، إذا أردنا أن نتحدث عن النكبة، فإننا لا نستطيع أن نعزلها عن المؤثرات الأخرى، ونقول إن الانجليز قاموا بخيانتنا، وإن الجيوش العربية لم تحارب، بل علينا أن نعود إلى أنفسنا، وإلى التفكك الاجتماعي - السياسي الذي كان موجوداً في فلسطين. فالمجتمع الفلسطيني لم يكن متماسكاً منذ منتصف القرن التاسع عشر، وقانون الأراضي عمّق الانقسام فيه، وكان لذلك عدة أسباب، منها: إجراءات إبراهيم باشا، وتطبيق التنظيمات، وسياسة الإنجليز... وهذه عوامل عمل جميعها على تفكيك المجتمع الفلسطيني وإضعافه. وبالنسبة إلى الإنجليز فإن سياستهم كانت مرسومة، أما بالنسبة إلى غيرهم فلم تكن كذلك، ولا بد من دراسة السياسة التعليمية لحكومة الانتداب كمثال لسياستهم العامة.

■ هل ترى أن الوضع في الرملة كان مختلفاً لأن ملاك الأراضي كانوا هم المعارضة؟

■ هل لك أن توضح لنا تأثير السياسة الإنجليزية بشأن التعليم في فلسطين؟

□ أبدأ في الموضوع من نطاق محلي يتعلق بمدينة اللد التي عشت فيها. لماذا سقطت اللد مع أنه كان هناك قوى محلية تستطيع أن تدافع أكثر ممّا حدث؟ إن المدينة كانت منقسمة على بعضها، مثل أي مدينة أخرى في فلسطين: قسم "مجلسيون" يؤيدون حزب المفتي، وقسم "معارضون" يؤيدون حزب النشاشيبي، لكن الاسم ليس له معنى اجتماعي، فالفوارق بين هذين الحزبين هي فوارق اجتماعية. كان المجلسيون (نسبة إلى المجلس الإسلامي الأعلى) يمثلون الأعيان وأصحاب الأراضي، بينما كان المعارضون يمثلون عائلات أخرى كانت ثروتها نابعة من التجارة ومن الوظائف التي كانوا يشغلونها وليس من ملكية أراض واسعة، أي أنهم ليسوا أصحاب أملاك، باستثناء عائلة النشاشيبي، الأمر الذي يعني أن المجتمع الفلسطيني كان منقسماً بين هذين الحزبين وبينهما عدا. وبالتالي، كانت اللد تعاني الشيء نفسه الذي تعانيه باقي المناطق، فالمجتمع الفلسطيني كان منقسماً ولم يكن مترابطاً، وهو ما أفقده القوة التي تستطيع أن تواجه الصهيونيين

القاهرة، أو بالجامعة الأميركية في بيروت، أو بالأزهر. كان وضع البلد على النحو التالي: لا يوجد تعليم ثانوي كاف، أو تعليم جامعي، في مواجهة منظمة لها أطماع واضحة ولها مؤسساتها التعليمية وجامعة وتخنيون [معهد التخنيون]، وأنا أعتبر هذا تقصيراً كبيراً من قبل الحكومة المنتدبة بما يتعلق بسياسة التعليم، وأخشى أن ذلك كان مفروضاً من أعلى الهرم، أي من لندن، لكن بعد ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ بدأ الانجليز ينشرون التعليم الثانوي، وهو ما حدث في أثناء الحرب العالمية [الثانية]، أي أن الانجليز لم يؤسسوا شبكة تسد حاجات السكان من التعليم الثانوي، ولا مؤسسة للتعليم العالي في فلسطين.

■ كي نكمل الصورة، ماذا عن مدارس الإرساليات والمدارس الخاصة؟

□ كان يوجد مدارس خاصة، لكن الذين كان في إمكانهم أن يرسلوا أبناءهم إلى المدارس الخاصة أو إلى مدارس الإرساليات، هم ممن كان وضعهم الاقتصادي جيداً.

□ صحيح، لكنهم لم يملكو أراضي واسعة، ولم يكن هنالك نفوذ للمجسبين في الرملة على عكس ما كان عليه الوضع في يافا واللد، لكن بالإجمال كان المجتمع الفلسطيني منقسماً، وبسبب هذا الانقسام لم يكن قادراً على مواجهة الحركة الصهيونية.

وبالعودة إلى السياسة التعليمية الإنجليزية: لقد وجّه الانجليز اهتمامهم إلى التعليم الابتدائي وحاولوا بناء مدارس ابتدائية (مدارس معارف) للصف الرابع، أو للصف السابع، في المدن والبلدات. أمّا في القرى فإن هذه المدارس كانت للصف الرابع، وكان الطلاب المتفوقون يذهبون إلى المدينة لاستكمال الدراسة الابتدائية. وحتى سنة ١٩٤٠ كان هناك ثلاث أو أربع مدارس ثانوية حكومية فقط في فلسطين كلها: الكلية العربية والرشيدية في القدس، والعامرية في يافا. بعبارة أخرى، لم يكن هناك اهتمام بنشر التعليم الثانوي، وطبعاً لم تقم جامعة، بينما كان اليهود قد أنشأوا الجامعة العبرية منذ سنة ١٩٢٤، أمّا العرب فإن الذي كان يرغب في الدراسات العليا كان يلتحق بجامعة

العلم وسيلة لإثبات الذات

شهادة الثانوية الإسرائيلية بعد سنة ١٩٥٠، إذ وجدت أنني بحاجة إلى شهادة ثانوية كي أتمكن من إكمال دراستي. وقبل أن أنال شهادتي الثانوية اشتغلت بالتعليم من دون التحضير الكافي، وخلال عملي بالتدريس قمت بالتحضير لامتحانات الشهادة الثانوية الإسرائيلية أو ما يسمى "البحرود". لقد كان هنالك مدرسة ثانوية حكومية إسرائيلية في الناصرة، وأنا درست ذاتياً وتقدمت إلى

■ لننتقل إلى تجربتك أنت في مجال الدراسة، أين درست؟

□ ذكرت سابقاً أنني أنهيت الابتدائية في اللد، ثم التحقت بالمدرسة العامرية الثانوية في يافا، لكنني لم أنه المدرسة الثانوية، فبسبب الحرب، أصبحنا غير قادرين على السفر من اللد إلى يافا، ثم بعد شهر ونصف شهر تقريباً أغلقت العامرية نهائياً. وأنا نلت

هنالك علاقات مع القدس، لكن كان لنا في بيت لحم عائلة واحدة من أقاربنا.

بعد انتهائي من امتحانات الشهادة الثانوية التحقت بالجامعة العبرية مباشرة، وكان ذلك في سنة ١٩٥٣، وبدأت أدرس التاريخ العام والفلسفة، إذ كانوا يدرسون في الجامعة، حتى مرحلة البكالوريوس، هذين الموضوعين. ومن جملة أساتذتي في موضوع التاريخ كان هناك شخص اسمه يعقوب ظلمون، وكان ممتازاً من ناحية علمية ومن ناحية إنسانية أيضاً، ولقيت تشجيعاً كبيراً منه.

■ لماذا اخترت التاريخ كتخصص للدراسة؟

□ أول وأهم شيء كان يشغل بالنا كلنا، هو سؤال لماذا حدث معنا ما حدث؟... لماذا خسرتنا فلسطين، ولماذا أصبحنا أقلية يُنظر إلينا باستعلاء؟ كان كثيرون من الذين تعاملنا معهم من اليهود لديهم عنجهية وتكبر، وفي المقابل كان آخرون منهم يشعرون معنا ويعملون جهدهم لمساعدتنا. لقد كان لدينا شعور بأننا علمياً لم نكن بالمستوى الذي كان عليه زملاؤنا، فقد كنا أضعف منهم علمياً، لا نعرف لغات ولا نعرف ما الذي يحدث في محيطنا. لقد كنا مهزومين ونشعر أحياناً بالإذلال، وكنا نشعر بأن خلاصنا من هذا الوضع هو العلم، فإن لم نتعلم تبقى تشتغل كعامل. واخترت التاريخ لأنني شعرت بأننا إن لم نعرف تاريخنا لن نستطيع أن نعرف سبب الحال الذي أصبحنا عليها، والنتائج من عدم فهمنا لتاريخنا.

■ هل كانت العائلة تعتبر أن دراسة التاريخ لن تكون مدخلاً للارتقاء المهني، أي بحسب النظرة التقليدية، كطبيب أو مهندس؟

امتحانات "البجروت" في الناصرة باللغة العربية، أما اللغة العبرية فتعلمتها بعد سنة ١٩٤٨، إذ إن الفلسطينيين قبل النكبة لم يقوموا بدراسة اللغة العبرية، وكان ذلك قصر نظر من جانبهم.

وكما يبدو لي فإن اليهود لم يشجعوا على تعلم اللغة العبرية قبل سنة ١٩٤٨، أما بعدها فإن الوضع أصبح معكوساً، وكنا نذهب لتعلم العبرية في مدرسة محلية في اللد للمهاجرين الجدد، ومعظمهم جاء بعد النكبة هرباً من الاضطهاد في أوروبا خلال الحرب وقبلها، وقامت المنظمة الصهيونية العالمية بجمعهم وإحضارهم إلى فلسطين. وفي اللد كان هنالك بلغاريون ورومانيون، أي من يهود شرق أوروبا.

■ هل كان هنالك عداً تجاههم، مع العلم أنهم احتلوا بيوت العرب اللاجئين؟

□ كان العرب يبحثون عن عمل بغض النظر عن الواقع الذي استجد عليهم، وكنا نذهب لنصلح بيوت عربية كي يأتي هؤلاء المهاجرين ويسكنوها. لقد كان همنا إيجاد لقمة عيشنا.

■ ألم يكن لديكم مرارة جرّاء ذلك؟

□ لا أذكر الآن بعد أكثر من ستين عاماً ما كان شعوري، لكن لا شك في ذلك، غير أن همنا الأساسي كان لقمة العيش.

■ هل كان هنالك تواصل بينكم وبين المناطق الأخرى؟

□ مع الرملة ويافا نعم، لكن مع الشمال لم يكن هنالك تواصل. أخوالي كانوا من عائلة منير، ولم يغادروا اللد حتى اليوم، وهذا يعني أن محيطنا كان في اللد ويافا والرملة، ولم يكن

أفقاً أوسع ممّا لو بقي في المناخ الأكاديمي ذاته، الذي درس فيه خمسة أو ستة أعوام. وقد سبقني بعض زملاء الدراسة إلى أكسفورد فاقتفيت أثرهم.

■ هل برأيك يمكن أن نصل إلى يوم يعيش فيه العرب واليهود متساوين على أرض فلسطين؟

□ إذا وصلنا إلى مستوى علمي واقتصادي متفوق، عندها نستطيع أن نتعايش، أمّا إذا كنّا متأخرين عنهم فإن من الصعب تحقيق ذلك.

■ هل الفجوة بيننا وبينهم تتقلص أم تتزايد؟

□ الفجوة لها شقان: الأول مسألة علم وذكاء ومقدرة ونحن لسنا أقل من أي شعب آخر، والثاني هو التوجه السياسي، فبين اليهود أناس مواقفهم متحررة ولديهم الاستعداد لأن يتقبلوا العرب ويتعايشوا معهم، لكن هناك من لا يريدون أن يروا أي عربي كمواطن في إسرائيل، وهؤلاء يتعاملون معنا، إلّا إن قناعتهم هي أن هذه البلاد يهودية لا عربية. أمّا نحن فمن مصلحتنا أن نشجع التيار الليبرالي المنفتح والمستعد للتعايش مع العرب، ونحن مستعدون للتعايش مع هذا التيار.

وعلى أي حال، علينا أن نتمتع بحنكة وعمق سياسي، لأن التحديات أمامنا كبيرة. ■

□ كنت أشغل وأتعلم. لقد توفي والدي وأنا ابن ستة أعوام، وكنت كبير إخوتي، ولا يوجد أحد يهتم بي أو يساعدني على أن أتعلم أو على اختيار الطريق، لكنني كنت حراً في اختيار طريقي. وثانياً، كنت مضطراً إلى العمل كي أعيش، واستمر ذلك حتى دراستي في مرحلة الدكتوراه بعدما كنت قد أنهيت البكالوريوس والماجستير في الجامعة العبرية، وكنت أعمل معلماً، كما ذكرت آنفاً، في البداية في اللد والرملة، ثم في بيت صفافا وأبو غوش قرب القدس. كانت أقساط التعليم الجامعي رخيصة، وفي الحقيقة لمسنا لدى سلطات الجامعة تشجيعاً للعرب للالتحاق بالجامعة، ولا تستغربوا ذلك، فالسلطات كانت مضطرة، تطبيقاً لقانون التعليم الإلزامي، إلى أن تفتح المدارس في المدن والقرى العربية، وبالتالي كانت الدائرة العربية في وزارة التربية والتعليم في حاجة قصوى إلى معلمين، الأمر الذي فتح المجال أمام خريجي الجامعة للعمل.

■ لماذا قررت فيما بعد الانتقال إلى أكسفورد؟ لماذا لم تكمل تعليمك في الجامعة العبرية؟

□ كنت بين أول فوج درس الماجستير في دراسات الشرق الأوسط، وكنا ١٣ طالباً، ولم يكن هنالك مصادر أولية كافية للبحث العالي، كما أن الجامعة [العبرية] كانت تفضّل أن يتخرج الطالب من جامعة في الخارج. فالدراسة في الخارج توفر للطالب